سُؤَالُ المَصِيْرِ الحَضَارِيِّ الغَرَبِيِّ الرَّاهِنِ

■ أ. د. نزهة بوعزة[1]

ملخّص

إنَّ الحضـارة الغربيـة هي حضـارةٌ تمثِّل تجربـةً تاريخيةً غيّرت نمط اسـتيعاب الإنسـان الحداثي للوعي التاريخي؛ إذ منحت الأفق المستقبلي، بوصفه غايةً خيّرة، والامتيـازَ الذي يضفي معنى عـلى الوجود. لكن الواقع الغـربي الراهن يعيش أزمةً داخليةً وخارجيةً؛ يتمثَّل طابعها الأوَّل في فقدان الأفق المستقبلي الذي شكّل أساس الأزمنة الحديثة؛ إذ لم تعد الأجيال الجديدة تؤمن بأنَّها ستعيش حياةً أفضل من تلك التي عاشتها الأجيال السابقة.

صحيـح أنَّ الحضارة الغربية تمثِّل إرثًا إنسـانيًّا مشـتركًا يخـصّ الجميع بوصفه متاحًا ثقافيًّا، لكن خصوصيتها ومسـار تشـكّلها سيظلَّان مرتبطين بمنشئها المكاني والزماني. لهذا، فإنّ التسـاؤل عـن مصير الحضارة الغربية يحمل عـدّة أبعاد؛ أوّلها أنَّ هـذه الحضارة تعيش على وقع أزمة، وثانيها يتنـاول مآل هذه الأزمة. يرتبط البعد الأوّل بعملية تشـخيص الأزمة وتقويمها؛ أي بالبعد المعيـاري الخاصّ بقراءة أزمة الحضـارة الغربية. أما البُعد الثـاني، فيتعلّق بالتنظير للمسـتقبل الحضاري الغربي. ويُقـرأ هذان البعدان من منطلق يسـعى إلى إيجاد أرضية لبنـاء فرضيات عن وجود حضارات أخرى صاعدة، أو إمكانات ظهورها مستقبلًا.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الغربية، الأزمة، المآل، التاريخ، البديل الحضاري.

١ - دكتوراه من جامعة فاس-المغرب، أستاذة الفلسفة في أكاديميَّة الشرق.

Question of the West's Current Civilizational Destiny

■ Prof. Nezha Bouazza[1]

Abstract

The Western civilization represents a historical experience that transformed modern man's understanding of historical consciousness. It endowed the future with a moral dimension, viewing it as a benevolent end and a privilege that gives meaning to existence. However, the current Western reality is experiencing internal and external crises, most notably the loss of that future-oriented vision upon which the edifice of modernism was built. New generations no longer believe that their lives will be better than those of their predecessors. Although Western civilization is regarded as a shared human heritage that is accessible to all, its distinctive character and historical development remain closely tied to its specific temporal and geographical context. Therefore, the question of the future of this civilization can be examined from two perspectives. The first concerns diagnosing its current crisis and evaluating it from a normative standpoint, while the second focuses on anticipating its civilizational future. Together, these two perspectives provide a foundation for developing hypotheses about the rise of other civilizations or the possibility of the emergence of new ones in the future.

Keywords:

Western Civilization, Crisis, Fate, History, Civilizational Alternative.

1 -PhD from the University of Fez, Morocco. Professor of Philosophy at al Sharq Academy.

مقدّمة:

إنّ مساءلة المصير الحضاري من الناحية الفلسفية تثير مسار الفاعلية البشرية في ثنايا التاريخ؛ أي مجمل التجارب التاريخية التي استطاعت أن تؤسِّس، بمعنى ما، عتبات زمنية ترسم لتجارب بشريــة مميّزة ثقافيًّا، وقيميًّــا، واجتماعيًّا، واقتصاديًّا، يمكن أن ترقى لنموذج إنســاني كوني...، فالوعي بالأثر أو البصمة الوجودية للإنســان هي الميزة الأولى لفــرادة الحضارة وكونيَّتها. ومنه فـ «إنَّ النظر إلى نشــوء الحضارات عبر التاريخ الطويل للإنســانية، يوضِّح لنا بجلاء بأنَّ ظهور الوعــي التاريخي لدى الجماعات البشرية هو الذي خلق وحدة الشــعوب والحسّ الجماعي، ومن هذا الشــعور تكوَّنت وحدة الرؤية التاريخية والاجتماعية»[1]؛ إذ هي تجارب تعكس مسار حضارة تمسّ الإنســانية كلّها، وهو ما يجعلها تنفلت من المحليّ نحو الكوني، ما دام أنَّها تتأطَّر وفق المأمول الخير لكل البشر، فالأمر يرتبط بمنحى هوية حضارية خاصّة تقدّم إشــعاعًا كونيًّا؛ إذ عندما نســائل هنا الحضارة نكون أمام مسارين على الأقل؛ المسار المعرفي لأسس تشكّلها، ومسار قراءة وتأمُّل، وكذا تقويم هذا المِعمار الحضاري خارج مدار تشكّله، وهذا الأخير هو ما يعكس، بمعنى ما، الأفق والمأمول الانتظاري القيمي الذي يمسّ الكوني.

١ - أحمد بابانا العلوي: بناء الحضارات ومنظومة القيم المرجعية، ديوان العرب.

منذ منتصف القرن الثامن عشر، أُثير التساؤل عن طبيعة المسار البشري، أو مسار الفاعلية البشرية في خضم التاريخ. نقلت هذه المساءلة مفهوم الحضارة[١] من رصد بسيط لمسار تجربة تاريخية إلى دراسة تدمج البُعد الأنثروبولوجي لمختلف الحضارات. وهنا، يحضر ضغط الجماعة المشكَّلة أو المعبِّرة من خلال نشاطها، بمختلف أنواعه وأشكاله، عن تميُّز ثقافي يرفع لمرتبة حضارة إنسانية؛ ففي القرن التاسع عشر، أصبحت فكرة الحضارة تحمل معنى أنثروبولوجيًّا أو تمس، بشكل ما، بالسمات الأنثروبولوجية لمركز ثقافي معيّن. وهو ما تأتىَّ بفعل تأثير فلسفة التاريخ لـ (يوهان غوتفريد هيردر -Johann Gottfried Herder)، وكذا المدرسة الرومانسية؛ حيث أصبحت الحضارة تُعرف بـ «Kultur» التي تشير إلى جميع الخصائص الإثنولوجية، واللغوية، والثقافية والخُلُقية لمجموعة بشرية. وفقًا لهذا التعريف، فإنَّ الإنسانية تتوزَّع على مناطق جغرافية واسعة تضمّ عدّة شعوب وأمم وثقافات، مرتبطة بأصلها أو بنشر عدد معينَّ من السمات الأنثروبولوجية، انطلاقًا من مركز ثقافي كبير.[٢]

ويمكن القول إنَّ الجغرافيين هم أوَّل من أثاروا مفهوم الحضارة بماهية ظاهرة جماعية؛ إذ لفهم ديناميَّتها، يجب استيعاب العملية التي شيَّدتها من خلال أبسط مظاهرها، ومن خلال المسؤولين أو الفاعلين الرئيسين في تشكُّلها[٣]. ظهر مصطلح الحضارة في عام ١٧٥٦ ويُنسب أول استعمال بارز لها إلى (ماركيز دي ميرابو - Marquis de Mirabeau) في كتابه «معاهدة السكان» (L›Ami des hommes ou Traité de la population)، وقد أُثيرت أيضًا في مقال عن «أخلاق وروح الأُمم» لصاحبه (فولتير - Voltaire). ومنذ ذاك الحين، احتلَّ المفهوم مكانة بارزة،

١ - طوَّرت فكرة الحضارة بداية من قِبل الكُتَّاب الفرنسيين في القرن ١٨ على أنَّها مفهوم مغاير لـ «الهمجية». فالمجتمع المتحضِّر هو المجتمع الذي يتحلَّى بالأخلاق الحميدة، وينعم بمرحلة متقدِّمة من التنمية. وتشير فكرة الحضارة الى حالة من التحضُّر، وهي التحلِّي بالأخلاق الحميدة، والتهذيب، والتقيّد بالأعراف، وهذه جميعًا علامات لمرحلة متقدِّمة من التطوُّر الإنساني»؛ بدران بن لحسن: مفهوم الحضارة: دراسة تحليلية مقارنة عابرة للثقافات، ص١٦٣.

2 - Jean Sylvestre Montgrenier: L'occident : une civilisation et une réalité géopolitique à l'éprouve, P5.

3 - Paul Laval: L'idée de civilisation dans la pensée contemporaine. L'apport de la géographie et de l'histoire, Anatoli de l'Adriatique à la caspienne : Territoire, p61.

خصوصًا في الفكر الفرنسي. أما خارجيًّا، وبالأخصّ في ألمانيا، وكذا الدول الناطقة بالإنجليزية، فهو يحضر بشكل يتوافق أو يرادف، بمعنى ما، مفهوم الثقافة، لهذا غالبًا ما يجري استخدام مفهوم الحضارة بشكل أقلّ[1]. يحضر هنا نوع من الترادف بين مفهوم الثقافة والحضارة، على مستوى الترجمة الخاصّة بالسياق اللغوي الأوروبي، لكن مع ذلك لا يمكن الجزم أو التسليم بهذا الترادف، فـ «لقد ارتبطت كلمة حضارة في أوروبا بكلمة ثقافة، وأكَّدت تقريبًا المعنى نفسه، وظلَّت كلمة ثقافة مرادفة لكلمة حضارة في جامعة برلين عام ١٨٣٠، وكان (هيجل) يستعمل الكلمتين بالمعنى نفسه... ثمَّ ظهرت الحاجة إلى التفريق بينهما... إنَّ كلمة حضارة تعني في الوقت نفسه قيمًا خُلُقية وقِيمًا مادية»[2]. وهو ما يجعل القول إنَّ مفهوم الحضارة يميل، إلى حدّ ما، إلى ترجيح الكفّة نحو الرصيد القيمي الإنساني المنفلت من القيود الثقافية، وقيود الهويَّة الضيّقة.

ما يسمح لنا بالقول إنَّ الحضارة هي نظام شمولي يخصّ كلّ ما يمسّ القواعد والمعارف والبنيات التي يتأسَّس عليها المجتمع، ومنه فإنَّ مفهوم الحضارة يصير، بمعنى ما، أشمل من مفهوم الثقافة؛ إذ «إنَّ وظيفة فلسفة الحضارة هي الانتقال من وقائع تاريخية جزئية معينة إلى أحكام كلية شاملة- وبالتالي يكون منهجها استقرائيًا يعتمد على النظر في الجزئيات لتشكيل تصور شامل».[3] وقد يكون هنا التأمُّل الفلسفي للمسار الحضاري هو من يمنحها بُعد النظر الكُلِيّ والشمولي الذي يرصد الجزئيات، لتشكيل قانون أو لنقل تصوُّر عام يفسِّر، بشكل ما، آلية تشكُّل حركية الحضارات وانهيارها. لهذا، فإنَّ فلسفة الحضارة «تبحث عن الأسباب والعلل والنتائج، إنَّها تبحث عن القوانين التي تسير الحضارات بمقتضاها، وهي بذلك تقترب من العلم القائم على المنهج الاستقرائي الذي ينتقل من الظواهر الجزئية إلى القوانين الكلية التي تصلح للتطبيق في كل زمان ومكان»[4]. محاولة الخروج بقانون يفسرِّ المسار التاريخي للعتبات الحضارية.

---

1 - Paul Laval: L'idée de civilisation dans la pensée contemporaine. L'apport de la géographie et de l'histoire, Anatoli de l'Adriatique à la caspienne : Territoire, P57.

٢ - أحمد بابانا العلوي: بناء الحضارات ومنظومة القيم المرجعية، ديوان العرب.

٣ - زياد عبد الكريم: فلسفة الحضارة مقاربات في المفهوم والماهية، موقع مقال.

٤ - زياد عبد الكريم: فلسفة الحضارة مقاربات في المفهوم والماهية، موقع مقال.

إنَّ الحديث عن مصير الحضارة الغربية يستبطن عددًا من الإشارات التي تخصّ واقعها الراهن؛ لأنَّ إخضاع هذا الراهن للمساءلة هو في حدّ ذاته إعلان عن رغبة في تخطّيه أو تهميشه، وهي رغبة ناتجة عن وضع يكشف صورتين: الحضارة الغربية كما نتأمّلها؛ لأنَّها تستجيب لمتطلّبات المشترك الكوني، والحضارة الغربية التي حصرت صورتها منذ الحركات الاستعمارية والاستيطانية والتوسُّعية في السلطة، والهيمنة، وفرض النموذج الواحد. إنَّ إثارة الصورتين جعلت من الحضارة الغربية إشكالية تمسّ كلّ الثقافات التي انخرطت في عملية استلهامها وتنزيلها على حساب ثقافتها وهويّتها.

إنَّ ملامح أي حضارة لا تتَّضح إلا بعد أن تأخذ صورة مكتملة تأمُّلاً وواقعًا. لهذا، يمكن القول «إنَّ التفكير في تاريخ الحضارة، تفكير مستقبلي، يبدأ في الحقيقة، من الاهتمام بالحاضر، انطلاقًا من أنَّ الوقائع التاريخية لا تنفصل تمامًا عن الواقع الحي»[1]. وقد يكون هنا مربط الفرس؛ فالحضارة الغربية في حاضرها الحداثي شكَّلت نموذجًا مثاليًّا لكل الشعوب، لكن واقعها، بعد تسلّمها زمام قيادة العالم، أبان عن تهافت مفاهيمها التقدُّمية. وهذا لا يعني التقليل من أهمية المفاهيم بوصفها أمثلة نظرية مجرَّدة مطلوبة لذاتها، لكن عملية الإنزال والتبنِّي من طرف الغربيين أنفسهم هي من طالها التشويه والتضليل، خصوصًا خارج جغرافيا الغرب.

صرنا أمام راهن يعكس أسسًا معرفية وفلسفية تعلي من قيمة المادّة والآلة على حساب الإنسان والطبيعة؛ إذ «تتميَّز الحضارة الغربية بنظام معرفي وأنطولوجي يقوم على تقديس العقلانية، والآلية، والفردانية، والسيطرة على الطبيعة والإنسان. هذا النظام، الذي تبلور عبر قرون من الاستعمار والرأسمالية، يختزل الوجود الإنساني إلى أداة في خدمة التقدُّم المادي»[2]. إنَّ الراهن السياسي والقِيمي الغربي ما هو إلا انعكاس لأسس الأزمنة الحديثة، فالحضارة الغربية لم تثر بوصفها معضلة حضارية إلا بعد أن توّجت وجودها بأزمات على شتّى الأبعاد، وأهمّها كان البُعد الخُلُقي، وتهميش التعدُّدية الثقافية للآخر، والدخول في هوس السلطة، واستعباد الآخر ونهبه لصالح رفع قيمة الأنا، وهو ما سحب عن الحضارة الغربية حافزها الجوهري؛ إذ «لا

١ - أحمد بابانا العلوي: بناء الحضارات ومنظومة القيم المرجعية، ديوان العرب.
٢ - أنس الربيعي: الحضارة الغربية: أنطولوجيا السيطرة وفقدان الانسانية، الجزيرة نت.

ينبغي أن تقوم الحضارات الإنسـانية الحقيقية على الأنانية المفرطة، والرغبة في الاستحواذ على مقدّرات الشـعوب، وترسيخ أنَّ غاية الإنسـان في الحياة تنحصر في تحقيق الرفاهية له، دون أن تسمو بروحه، وتهذّب خُلُقه، وتتطلّع إلى آخرته»[1].

إنَّنا اليوم أمام ما يمكن تسميته بفقدان المعنى الحضاري الذي تأسَّس ما بعد الحرب العالمية الثانيـة؛ حيث الاحتكام إلى الأمم المتحدة، ومحكمـة دَولية، وقانون جنائي دَولي ينظِّم مجمل العلاقات الدَّولية. هذا المعنى جرى تعويضه بالشـعبوية، والسـلطة، والعجرفة التي تسعى قدر الإمكان إلى نهج سياسـة الإقصاء، وشـنّ حروب تحت ذرائع واهية، وأغراض توسُّـعية نفعية، تهـدف بالأسـاس إلى تهميش باقي الثقافات بنـاءً على وَهْم التفوُّق الحضاري، وهو ما سـمح بإخراجها من منطقها التاريخي.

قد يجعلنا هذا نتسـاءل: ما مكامن أزمة الحضارة الغربية الراهنة ومظاهرها؟ وما هي آليَّات الدفـاع الغربي لتجاوز هذه الأزمة؟ وهل إثارة مسـألة التجاوز تعني وجود بدائل حضارية قادرة على تسـلُّم زمام القيادة الإنسانية؟ وهل الحضارة الغربية هي كينونة وجودية قائمة بماهية قطبية أحادية أم هي مشترك كوني يصعب رسم حدود لها خارج باقي الحضارات؟

أوَّلًا: تراجع/انهيار السرديات التأسيسية للمشروع الحضاري الغربي:

تعتـبر الحضارة الغربية من أهمّ الحضارات التي اسـتطاعت، بمعنى مـا، أن تخلق تأثيراً خارجيًّـا بشـكل ملفت، بل تجـاوزت إطار التأثير لتصبـح بمرتبة النموذج الإرشـادي لجلّ الثقافات الأخرى، وهنا اسـتطاعت أن تمنح معنى وقيمة للوجود الإنسـاني باعتباره غاية في حدّ ذاته، فكنّا أمام اليقين بوجود إمكان تحقق أرضية قيمية للمشـترك الكوني، بمنظار تأمُّلي يغلب عليه الشـحنة الإيجابية التي تخندق وجود الإنسـان وفق معيار الخير والغد الأفضل، فجرى تعتيم القالب الحضاري الغربي بالغاية الخيِّرة. هذا التوجُّه خارج الذات مثَّل في الوقت نفسه قوَّة الحضارة الغربية وضعفها؛ فعملية التثقيف التي حصلت عبر التاريخ كانت تحصل

١ - مصطفى عطية جمعة: أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، شبكة الألوكة.

بشكل سلس دون توجيه أو قصد أو فرض، في حين جعلت الحضارة الغربية من نفسها المادَّة الإرشادية والقائمة على هذه المادّة؛ لأنَّ الحداثيين توجَّهوا نحو أفق التاريخ، وأعطوا الأولوية للمستقبل، وارتكزوا على فكرة أنَّ التقدُّمَ عمليةُ استشرافٍ للمستقبل انطلاقًا من أفعالهم الخاصّة،[1] في حين أنَّ المسار التاريخي غير قابل للتنبُّؤ القَبْلي بمجريات سريانه؛ لأنَّنا «نبني التاريخ في راهنيته، ومنها نطلق الأحكام على اتجاهين إزاء ما نتركه وراءنا (الماضي)، وما نتوعَّد أنفسنا باستقباله في إطار ممكنات التحقُّق واللا تحقُّق (المستقبل)»[2]، وهو ما كشف، إلى حدٍّ كبير، عن جوانب القصور والانحراف عن المأمول الحضاري الإنساني، الأمر الذي وسَّع نطاق القراءات والمراجعات النقدية للحداثة ومآلاتها. كما أسهم في بروز عددٍ من المفاهيم التي سعت إلى توصيف الواقع الحضاري الغربي الراهن وتحليل تحوّلاته، مثل الأزمة، والانهيار، والصدمة الحضارية، والانحباس الحضاري....؛ إذ «من المعروف أنَّ الحضارة الغربية تمرُّ منذ عقود بأزمة حقيقية، فهي في الوقت الذي تبلغ فيه الذروة في الرفاهية المادية، فإنَّها تصل إلى مستويات دنيا في اللا معنى، وقِيم السوق، وتقديس الوسائل»[3]. نكون هنا أمام ذروة مادية وانهيار قِيمي يساوي فقدان المعنى الوجودي. وهو ما ينذر بانكسارٍ حضاري، ما دام أنَّ أساس أي حضارة لا يكمن في منجزها التقني والمادّي وحده، بل في قدرتها على الارتقاء بالإنسان وحفظ قيمته وكرامته، بوصفه الغايةَ النهائية للحضارة الإنسانية ومبرّر وجودها.

يبدو أنَّنا أمام مرحلة شبيهة بانهيار العصر الوسيط أمام العصر الحديث؛ مرحلة تعلن عن تبلور نظام عالمي جديد يفقد من خلاله إحدى مقوّماته السابقة لصالح اكتساب أخرى. وفي الوقت الراهن، تظهر على العالم الغربي أعراضٌ واضحة لأزمة الهوية، تتجلّى في التوتّر بين خطابه الكوني القائم على قيم الإنسانية والانفتاح، وبين تشبّثه بهويةٍ خاصّة تحكمها اعتبارات المصلحة والأمن.

---

١ - نزهة بوعزة: التجربة التاريخية الحداثية عند راينهايت كوزيليك، ص١٦.

٢ - نزهة بوعزة: التجربة التاريخية الحداثية عند راينهايت كوزيليك، ص١٠.

٣ - عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانيات، إسلام ويب.

ويزداد هذا التوتّر وضوحًا مع ما يبديه من قلقٍ متنامٍ إزاء التنوّع الثقافي والعرقي والديني، الأمر الذي يكشف عن إشكالية عميقة في علاقته بالآخر وبفكرة التعدّد ذاتها.[1]

يُحيل مفهوم الحضارة الغربية غالبًا إلى العالم الغربي، الذي ظلّ محلّ مساءلة مستمرّة تتعلَّق بوجوده، وتعريفه، وإشكالية تحديد هويته. وقد تأسّس هذا التحديد عبر توظيف عناصر متعدّدة، كالتاريخ، والجغرافيا، والدين، والثقافة، وغيرها، في إطار تركيب هوياتي مركّب. ومن خلال هذا البناء، تبلور تصوُّر مخصوص للعالم الغربي ورؤيته لذاته وللآخر، ما أسهم في إنتاج سردية حضارية غربية متميّزة. لكن أهم ما جرى التركيز عليه، في تركيب هذه الهوية الغربية، هي مسألة العالمية والكونية التي تخصّ حضارته، أي صفة العالمية لحضارته. لهذا، تاريخيًّا قدَّم الغرب نفسه نموذجًا ومقياسًا نموذجيًّا ونهائيًّا لتقدُّم البشرية[2]. فكانت الصفة في جوهرها صفة إقصائية واستكبارية، تقصي باقي الثقافات أو الحضارات، وتعلي عبر عملية الإقصاء الهوية الغربية بناء على مفاهيم معيارية تعلي من الجانب التقويمي للمشروع الحضاري الغربي. فصرنا أمام تصنيف حضاري عنصري بالأساس. ويمكن هنا الاستعانة بالإطار المفهومي لـ (صمويل هنتنغتون - Samuel P. Huntington)[3]، فمن البداية نلاحظ أنَّ الحضارات لا تصنَّف وفق المعايير نفسها. فالحضارات البوذية، والهندية، والأرثوذوكسية، تحدَّد بمعايير دينية، بينما الحضارة الإفريقية تحدَّد بالانتماء الجغرافي. أما الغرب فيوصَف بقيم مجرَّدة-مثل الحرية والحقّ[4]. فعملية

1 - Doudou Diène: Crise identitaire du monde occidental, Revue internationale et stratégique, p93.

2 - Doudou Diène: Crise identitaire du monde occidental, Revue internationale et stratégique, p93.

٣ - في الجغرافيا السياسية، كانت دراسة الصراعات العالمية موضوعًا لعدّة طرق تحليلية، ومن أشهرها نظرية «صدام الحضارات» لـ (صمويل هنتنغتون). عُرضت نظريَّته لأول مرة في مجلَّة (Foreign Affairs) عام ١٩٩٣. وبعد ثلاث سنوات، أكمل الأستاذ الأمريكي تأمُّلاته في كتابه «صدام الحضارات». على المستوى الوطني والدَّولي، وفي الأوساط الشعبية والأكاديمية، كان كتابه ناجحًا جدًّا. في عام ١٩٩٣، افترض (صمويل هنتنغتون) أنَّ الصراعات العالمية الرئيسة لن تكون بعد الآن أيديولوجية – كما في فترة الحرب الباردة – بل ستكون بين دول تنتمي إلى «حضارات» مختلفة. ولذلك، تعتمد نظريَّته على فرضية وجود ثمان حضارات: الغربية، والكونفوشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندوسية، والسلافية الأرثوذكسية، واللاتينية الأمريكية، والأفريقية.

4 - Doudou Diène: Crise identitaire du monde occidental, Revue internationale et stratégique, p93.

التصنيـف هنا تحيل على نوع من التفاوت الذي يضمر، بمعنى ما، تراتبية تضمن للغرب التميُّز. أما الآخر فيرتبط تصنيفه بطبيعة هويَّته أو انتمائه الجغرافي، وهو ما يستبطن ربط وجوده أو مرتبته في العالم وفق انتمائه الثقافي أو المكاني، فتصبح الحضارة الغربية هنا مطلبًا للتفوُّق.

لقد اعتبرت الحضارة الغربية نفسـها، منذ البداية، النموذج الكامل والمكتمل لكلّ البشرية، وكأنَّنا أمام دعوة تبشـيرية تعمّ العـالم؛ محرّكها ومركزها هو العالم الغـربي، وهو التصوُّر الذي ترجمه مجموعة من الفلاسفة الحداثيين، أمثال (رينيه ديكارت - René Descartes)، و(إيمانويل كانط - Immanuel Kant)، و(هيجل - Hegel)، و(لايبنتس - Leibniz)، و(فولتير - Voltaire)، يقـول (وائل حلاق): لقد «تأسَّسـت نظرية التقدّم على افتراض أنّ الزمن له بنية غائية متجانسـة وخطيـة، وعلى أنَّ هذا الهيـكل حتمي، ومن ثَمّ فإنَّ المراحل الأولى مـن التاريخ كانت ممهِّدة للمراحل التي تليها، تلك المراحل التي كانت بدورها مجرَّد وسيلة للوصول إلى القمَّة المقصودة للتقدُّم البشري الحقيقي، والمتمثِّلة في الحداثة الغربية»[1].

وقـد تكون الأزمة السياسـية الغربية المعاصرة، منذ الحربـين العالميتين، خير دليل على أنَّ الأفق المستقبلي للأزمنة الحديثة هو أفق تكتنفه نزعة القوَّة والسيطرة، أكثر مما يعبرّ عن نزعة خيرّة تحمل بشائر الأفضل للبشرية. ومنه، فإنَّ مفهوم الغرب مفهوم معقَّد بل وأكثر من كونه مجموعة مكانية بحدود تاريخية متغيرّة، فهو تمثيل للذات وللعالم، فهو أقرب لرؤية للعالم، أي مجموعة من المعتقدات، والمواقف، والقِيـم والأفكار، والمُثُل العُليا، (فرؤية العالم تمتزج بين الضمني والصريح، والعاطفي والفكري)[2]. «ولذلك، فقد أرسى الفكر الغربي نوعًا من التماثل بين التطوّر والحداثـة، وبين التخلّف والجمود، كما ربط بين الانحطاط والتقليد، بحيث غدا الأحدثُ زمنًا هو الأرقى من حيث التقدّم والتطوّر. ووفق هذا التصوّر، أصبحت المجتمعات الغربية المتقدّمة معيارًا يُقاس عليه التقدّم والتخلّف، استنادًا إلى ما حققته من ابتكارات وإنجازات»[3].

---

gique, p93.

١ - عثمان أمكور: سجالات الدولة المستحيلة (ردود وأفعال): حوار مع البروفسور وائل حلاق، ص٥.

2 - Michael Hudson: La fin de la civilisation occidentale: pourquoi elle manque de résilience, et ce qui la remplacera.

٣ - كارل لويث: ماكس فيبر وكارل ماركس، ص١٧.

تجـدر الإشـارة إلى أنَّ الإقرار بالأزمـة الحضارية قد يكـون مفيدًا، خصوصًا في السـياق العربي الإسـلامي؛ لأنَّه لا محالة سيذكرنا بضرورة «تحرير الإنسان أوَّلاً من الموروث السحري والأسـطوري والأرواحي والقومي والثقـافي، ومن ثَمَّ تحريره من السـيطرة العَلمانية على عقله ولغته»[1]. إنَّ فعل المقاومة تجاه السرديات الكبرى التي بناها الغرب هو ضرورة لتحريك العجلة التاريخية لباقي الشعوب، المقاومة لا الانصهار، وتزكية الهوية الثقافية الذاتية لا تهميشها لصالح غيرها، والاسـتلهام مع التجديد، لهذا قـد تكون الحركة الفكرية لباقـي الثقافات وعملية تبنِّيها لمشـاريع تسـتلهم الهوية الثقافية الذاتية مهمّـة وضرورية للخروج من بوتقـة التبعية. ما دام أنَّ «الفكر هو الذي يحرِّك الحضارة، والمفكِّرون بآرائهم وأقوالهم هم الذين يصنعون حركة التاريخ. وهذا يعني أنَّ تطوّر الحضارة إنَّما يقوم به أفراد من الناس يفكِّرون في المُثُل التي تهدف إلى تقدُّم المجتمـع، ويكيِّفونها مع وقائـع الحياة على نحو يجعلها قادرة عـلى التأثير الأقوى في ظروف العصر»[2].

لهذا، فإنَّ التوجُّه النقدي تجاه المشروع الحداثي الغربي يظلّ مقبولاً بل ومفروضًا بشدّة أمام ما نعيشـه اليوم من تردّي الأمر الخُلُقي، والكيل بمكيالين من طرف الغرب، بناءً على شـعارات حداثية تغلب غاية التقدُّم، والعقل، والحرية، والديموقراطية.. في حين أنَّ «عقيدة التقدّم تضحّي بالمـاضي من أجل تبرير حاضرها المَرَضي والإجرامي، فقد دمَّرنا كوكبنا باسـم التقدّم، وخلقنا أمراضًا تنهش العقل والبدن والهياكل الاجتماعية، إنَّ عقيدة التقدّم تخفي جرائمنا وخطايانا، وهي متعجرفة بغير حدّ»[3]. إنَّ عملية النقد هنا لا تنطلق من منطق رفض البناء الحضاري الغربي، بقدر ما تحاول أن تقف على نواقصه، وكذا موقع هُويَّتنا ضمن المشترك الكوني.

ثانيًا: أزمة هوية حضارية غربية

إنّ إثارة مفهوم الأزمة الحضارية بشـكل عام يولّد بالضرورة أرضية خصبة لفرز مجموعة من

١ - محمد أسامة: الرؤية التربوية الحضارية لـ «السيد محمد نقيب العطاس»، إضاءات.
٢ - زياد عبد الكريم: فلسفة الحضارة مقاربات في المفهوم والماهية، موقع مقال.
٣ - عثمان أمكور: سجالات الدولة المستحيلة (ردود وأفعال): حوار مع البروفسور وائل حلاق، ص٥.

القراءات والتأويلات، وكذا التنظيرات المستقبلية لواقع وحيثيات هذه الأزمة. فلقد كانت بداية القرن العشرين، خصوصًا ما بين الحربين، قد أفرزت غنى من حيث الكتابات التي تناولت الأزمة الحضارية الغربية؛ حيث أبانت السطوة السياسية الغربية، التي تُوِّجت بأنظمة شمولية واستعمارية ونازية، عن فساحة الشرخ الذي وقع بين المأمول القيمي الإنساني والتوجّهات السياسية؛ إذ كان للطفرة الهائلة في التقدّم التقني أثرٌ بالغ على مختلف المواقف الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، حتى غدت قوته بمثابة عقيدةٍ وُعِد من خلالها بحلّ الإشكالات الإنسانية عبر التقدّم التكنولوجي. وقد شملت عملية التقنين جميع المجالات، ما أفضى إلى أزمةٍ روحية تمثّلت في تقنين العلم ذاته، الذي تحوّل إلى مجرد حسابٍ رياضيٍّ مجرّد، فاقدًا لمعناه القريب من التجربة اليومية والمعيشة. ومنذ عصر الأنوار، الذي يُعدّ من أبرز جذور الأزمة الراهنة في أوروبا، انحرفت العقلانية الحديثة نحو تصورٍ اختزالي للواقع، يُهيمن عليه القياس الكمي والعلاقات الرياضية، على حساب الأبعاد النوعية والمعنوية للوجود الإنساني. لقد أدركنا بالفعل أن التقدم العلمي والتقني والاقتصادي ينتج مجموعة كاملة من التأثيرات السلبية ليس فقط على المستوى البيئي، بل أيضًا على المستوى الاجتماعي والسياسي والثقافي. لذلك يبدو أن الأزمة التي نمر بها تؤثر على كامل الحضارة الغربية.[1] وبالتالي، لمعالجة الأزمة الحالية، يجب استعادة المعنى الأصلي للعقلانية، وهو ما يتطلَّب إعادة تأسيس العلم، وهي مَهمَّة يجب على الفلسفة العمل من أجلها. وقد يكون (إدموند هوسرل - Edmund Husserl) قد قدّم بذلك إجابة متفائلة في النهاية لأزمة البشرية الأوروبية، والتي تنتهي بالدعوة لمحاربة، «بوصفنا أوروبيين صالحين»، انحرافات العقلانية، بحيث إنّ فشلها ليس إلا «ظاهرًا»، وإنّ الأزمة نفسها ليست «قَدَرًا لا يُمكن اختراقه»[2].

إنَّ الأزمة التي طالت النموذج الحضاري الغربي لم تكن أزمة تخصّ انهيار نموذج حضاري، بل كانت أزمة عبَّرت عن أسس هذه الحضارة نفسها، التي رفعت شعارات لقيم إنسانية وكونية خيّرة، وانتهت بمظاهر وحشية وهمجية تشكِّك في أسسها الفلسفية والقيمية كلّها، فكان لتهميش الجانب القيمي والخُلُقي، في قلب المشروع الحضاري الغربي، مآل مادي تقني يفتقر للأسس

1 - Françoise Dastur: vivons nous une crise de civilisation, village saint Pons.

2 - Françoise Dastur: vivons nous une crise de civilisation, village saint Pons, P 74.

التي تكسبه ميزة الحضارة الإنسانية. لهذا، فـ«إنّ التأمُّل البسيط في الحضارة المعاصرة يفضي إلى استنتاج بديهي هو أنّ هذه الحضارة أُصيبت بأزمة مرجعية، فبدلاً من أن ترتبط بالجانب الروحي والخُلُقـي، وبمنظومة القِيم، بدلاً من ذلك ألهت الإنسـان والواقـع، في حين لا مرجعية خارج الإنسان وخارج الواقع، فالقِيم كلّها تستمدّ وجودها من الإنسان والواقع. لذا، أصبحت المنفعة المادية هي الغاية القصوى»[١]. فعملية اسـتبدال النطاقات المركزية -كما أسماها (كارل شميت - Carl Schmitt)- التي أسَّست جوهر هذه الحضارة هي المسؤولة عن أزمتها المعاصرة؛ حيث جرى تهميش المركز القيمـي والخُلُقي والديني لصالح المادي والتقني والنفعي، فـ«الأزمة لم تعد مقتصرة على مستوى التطبيق والممارسة، بل امتدت إلى البنية الفلسفية لهذا النموذج نفسه؛ حيث أضحى محل نقد متزايد بتهمة تكريس النهضة، واستغلال الأزمات لإثارة الصراعات بين الشعوب، بل وتبرير العنف تحت غطاء التحضر، خدمة لمنطق السيطرة»[٢]. فجرى رصد مسار لانهيار القيم الإنسانية بشكل تدريجي، من الشـعارات الحضارية الرنَّانة إلى العنصرية المغلفة برداء الحضارة الإنسـانية. لهذا، «نؤكّد أنَّ المعرفة ليست شأنًا محايدًا، وأنَّها في الواقع يمكن أن تكون مشربة بروح ومحتوى معينين يتنكّران في ثوب المعرفة، ومن ثَمَّ فهي بشكلها العام ليست في الواقع معرفة حقيقية وصحيحة، وإنَّما هي تفسير وتأويل للحقائق من خلال-إذا جاز التعبير- منشور الحضارة الغربية، ووفقًا لرؤيتها الكلية للوجود، ونظرتها العقلية للحقيقة ولإدراكها النفسي للوجود»[٣]. إنَّ مفهوم الحضارة الغربية أفقد مفهوم الحضارة ذاته شحنته الدلالية لصالح الشحنة الأيديولوجية التي تربط الحضارة بوصفها مشتركًا كونيًّا وإنسانيًّا بالغرب دون غيره؛ حيث جرى شحن الحضارة الغربية بكل الدلالات والمعاني الإيجابية التي رُفعت إلى مصاف الحضارة الفوق تاريخيـة. وبالعودة إلى رصد المسـار التاريخي للحضارات، نجـد أنَّ الغرب قد اعتبر حضارته حضارة عالمية؛ أي بوصفها نموذجًا ومقياسًـا، وتعبيراً نهائيًّا للتقدّم البشري[٤]. وبقدر ما حاول

١ - علي الأصبحي: أزمة الحضارة المعاصرة: هل هي أزمة قيم؟، ميثاق الرابطة.
٢ - عبد الإله الخضري: النموذج الحضاري الغربي -بين فلسفة الهيمنة ورهانات التعددية-، العمق المغربي.
٣ - محمد اسامة، الرؤية التربوية الحضارية ل«السيد محمد نقيب العطاس»، مرجع سابق.
4 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P93.

إثبـات وجوده عمل بالمقابل عـلى نفي الآخر، رغم أنَّ القالب الحضـاري، خاصَّة المفهومي، الذي عمل على رفعه كان مخالفًا لهذا التوجه. جاءت هذه العملية الإقصائية بشـكل تصاعدي؛ إذ شعور الأنا الغربي بالتفوُّق والسيطرة قد أفسح المجال لتعاظم الأنا وتهميش الآخر. لهذا، فإنَّ «القارئ المتنبّه للتاريخ يرى انفراد الحضارة الغربية عبر تاريخها الطويل بالإقصائية التي لا ترى الآخر من منظار تشـاركي بِقَدر ما تراه منافسًـا لدودًا، وعَدُوًّا محتمـلاً»[1]، ما دامت قد أدمجت التبشير المعرفي بالاستغلال المادي التوسّعي.

إنَّ العـالم الغـربي يمثِّل اليوم تقريبًـا كلّ أعراض «أزمـة هوية» يتداخـل في ثناياها المحلِّي والكـوني، لكنه على ما يبدو غير مدرك لها[2]، وتتجلىَّ هذه الأعراض بشـكل خاص من خلال علاقة التفوُّق الحضاري، وتضخُّم هذا الإحساس لدى الغرب، وهو ما يفقد، بمعنى ما، الحضارة الغربية حسّها التاريخي، كما أنَّنا أمام توجُّهين متعاكسين؛ فهناك نوع من التشبُّث بالهوية الغربية، وفي الوقت نفسـه هناك سـعي للحفاظ عليها على نحو انغلاقي، فنكون أمام تسـويق مفهومي لمعطى قِيمي خُلُقي وواقع يرفض أو يحارب أي تنوُّع ثقافي، أو عرقي، أو ديني.

إنَّ عتبـة الحضـارة الغربية التي تجاوزت عبر توسُّـعاتها الركن الغربي للقـارة الأوروبية قد شرعت لنفسها عبر مَهمَّة حضارية تتغذَّى بعقيدة ثابتة، مفادها التفوُّق الحضاري الغربي[3]. لكن البناء الداخلي لهُوية الحضارة الغربية ينهار من الداخل بشكل تدريجي. وفي هذا السياق، يمكن استحضار مقولة (رينيه شار - René Char): «إرثنا لا تسبقه أي وصية»، بما يفيد أنَّ كلّ جيلٍ مدعوّ إلى رسم آفاقه وصياغة معانيه الخاصّة. لكنَّ الآفاق المستقبلية للحضارة الغربية تبدو اليوم محاطةً بقدر كبـير من الغموض والضبابية، نتيجة تلاشي المعنى المشـترك الذي كان يؤسّـس للانتماء الجماعي. ففي زمنٍ يغلب فيه الانكفاء على الذات، تراجع الشعور بالانتماء إلى مشروع يتجاوز الأفـراد ويمنح الجماعة غايـةً جامعة. كما أنَّ انهيار السرديات الجماعية الكبرى، سـواء القومية أم الشـيوعية، إلى جانب تراجع الوعود التقدُّمية المرتبطة بالنمو الاقتصادي، أفسح المجال أمام

١ - فداء الدين السيد عيسى: الحضارة الغربية -حضارة متوحشة بجدارة-، الجزيرة نت.

2 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P 6

3 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P 94

تصاعد النزعة الفردانية وهيمنة منطق «الأنا». ومن ثَمّ، أخذ معنى «النحن» في التفكُّك والانحسار، بما يعكس أزمةً عميقة في أسس التماسك الاجتماعي والرمزي للمجتمعات الغربية المعاصرة[١].

لقد فقد العالم الغربي مصداقيته التاريخية، فحروبه، وقيمه، وثقافته، ونظرته، وطرقه في تسويق حضارته وثقافته، كلّها اليوم محلّ تساؤل. إنَّه عالم يتشقَّق وينهار تدريجيًّا. إنَّها أزمة تتعلَّق بالمعنى. ما دام أنَّ «الحضارة الغربية هي الوحيدة في التاريخ التي تجيب عن التساؤل عن معنى الحياة بـ «لا أعرف». ولهذا هي حضارة «اللا معنى»، كما أنَّها أسَّست فلسفة للوجود[٢] لا فلسفة للعمل، وبات التمحور اليوم حول قيم التقنية أكثر وضوحًا في ظل العولمة الجديدة وقيم السوق»[٣]. ففي الواقع، لا يوجد فعل سياسي دون شرعية مستندة إلى قيم إنسانية ذات طابع عالمي، مثل القيم الغربية الأولى من حرية، وكرامة، وعدالة، ومساواة الإنسان، وحقوقه ... وهذه القيم تفقد قيمتها واحترامها أمام الأزمة الهيكلية التي يعرفها النظام الرأسمالي، ما دام أنَّ السياسات المطبَّقة تدمِّر تدريجيًّا أسسها ووسائلها.[٤]وهو ما أصبح جليًّا أمام تراجع الجبهة اليسارية والاشتراكية التي كانت إلى حدّ ما تخلق نوعًا من توازن القوى، أو على الأقل تخلق أرضية للنقاش والمساومة، وكذا الإعلاء من قيمة الوجود الإنساني بعيدًا عن القيمة المادية، والتقنية، والسلطة، والقوَّة، «ويمكن الادعاء أنَّ التحليلات النيوماركسية عن المجتمعات ما بعد الصناعية أسهمت في ترسيخ الأوضاع الراهنة، وذلك من خلال إقصاء الطبقات العاملة والدنيا على المستويين النظري والتطبيقي، ما أسهم في تراجع اليسار، وتصاعد اليمين في أوساط الطبقات العاملة في معظم الدول الغربية في الفترة الراهنة»[٥]. وبالتالي، فإنَّ الرأسمالية اليوم،

---

1 - Nicolas Truong: comment sortir de la crise de la civilisation occidentale?, de la fatalité d'une économie fondée sur le crédit à l'affaire DSK, rencontre inédite entre les deux philosophies parmi les plus lus et traduits en Europe.

٢ - «فلسفة للوجود» بمعنى الوجود الفردي المنفصل عن الغايات الجماعية. لا «الوجود» بالمعنى الفلسفي العميق أو الميتافيزيقي والديني.

٣ - عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الاشكاليات والامكانيات، إسلام ويب.

4 - Marie –George Buffet: Du monde occidental au temps de l'humanité, p 63.

٥ - دينا شحاتة: أزمة الديموقراطيات الغربية... مقاربات نظرية للفهم، المركز المغربي للدراسات الاستراتيجية والعلاقات الدولية.

التي شـكّلت هذا العالم الغربي، والتي كانت في جوهرها سـبب هذه المشـاكل، لم تعد تواجه خصمًا خارجيًّا. فهي نفسها أعظم خصم لها، في أزمة تُظهر الحدود التي وصلت إليها[1]. لهذا، فإنَّ سقف انهيارها هو انهيار يرتبط بأسسها.

رغـم أنَّ القوة الأمريكيـة هي القوَّة العظمى، بمعنـى ما، لكن انفرادها بقيـادة الحضارة الغربية وحمايتهـا هو ما يهـدّد بانهيارها، فانكفـاء أو تواري العـالم الأوروبي خلف أمريـكا جعل التيار الرأسـمالي الليبرالي يلتهم القيم الغربية لصالح الهيمنة والهمجية والشعبوية؛ فمستقبل هذه القوَّة العظمى، التي لا تزال مهيمنة، قد تكون له تداعيات خارجية خطيرة. وإذا لم يصمد الرابط الأطلسي أمام دفعة عزلة أمريكية، فمن المرجَّح أن تعود أوروبا لتصبح مجرَّد رأس صغير من آسـيا، مسـتغلّة القوى الخارجية المزعجة انقسـاماتها. ومن المؤكِّد أيضًا أنَّه في موسكو وبيجينغ وطهران، من بين عواصم أخرى، يجري التكهُّن بانحطاط الغرب، الذي يُقدَّم على أنه أمر حتمي[2]. ومن هنا، يمكن التذكير بأنَّ نهاية التاريخ التي أعلنها المفكِّر (فرانسـيس فوكوياما - Francis Fukuyama) تشكّل، بمعنى ما، التعبير النهائي لما قد يُسمّى شمولية مرآة الغرب للعالم، عبر فرضية الانتصار الأيديولوجي النهائي لليبرالية السياسية والاقتصادية[3]. إنَّها أزمة تصيب بالفعل النظام الإنتاجي والمالي، وتمسّ دولة الرفاه، والمؤسسات، والعلاقات الاجتماعية، والقيم والتمثُّلات...انتهاء برؤية المستقبل. إنَّها أزمة تمس أسلوب التنمية والنمو، وسياسات القوَّة. إنَّ العالم الغربي يعيش على نظام بدأ يفقد أداءه. ففي هذه المرحلة الحرجة، تتجلَّى أحيانًا آمال ومقوّمات متعدّدة في شـكل راديكالي جديد؛ حيث يجري البحث عن بدائل وتغييرات من خلال تحدّي الإمبريالية والهيمنة التقليدية[4].

يمكن تشخيص الوضع الحضاري الغربي الراهن بالتموضع بين فقدان الهوية وإعادة بنائها، بناء على القاعدة التي تقول: لا شيء يضيع، ولا شيء يُخلق، كل شيء يتحوَّل. نحن في مرحلة تاريخية تتَّسم بالتوتُّر، والتمييز، والرفض، وبالتالي العنف الذي في الواقع يهدِّد قواها الديناميكية

1 - Marie –George Buffet: Du monde occidental au temps de l'humanité, p62.

2 - Jean Sylvestre Montgrenier: L'occident : une civilisation et une réalité géopolitique à l'éprouve.

3 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P96

4 - Marie –George Buffet: Du monde occidental au temps de l'humanité, p62

العميقــة للتحوُّل: أقلّياتها (الإثنية والثقافية والدينية) التي تخرج من حالة الغياب والصمت، من خلال النضال من أجل فرض التنوّع والقَبــول بالاختلاف[1]. إنَّ حركية النضال تُعدّ فعلاً مقاومًا قائمًــا بذاته، لا يقتــصر صداه على رفض التبعية الحضارية للغرب عبر آليات الســلطة، بل يمتدّ أيضًا إلى تعزيز الهوية الذاتية وتثمين رصيدها الثقافي والرمزي.

إنَّ الغــرب لا يمكــن أن يهزم إلا بنفســه، وبشــكل أدقّ من خلال فقدان الحافــز والعدمية، والاستســلام والتخلّي عن محاربة قوى التدمير الذاتي[2]. فعــدم قدرته على الخروج من ترادف هويته بالعالم أفرغ الحضارة الغربية من معناها، وسلبها بالمقابل حقّ البقاء والاستمرار، «ما دام أنَّ التأمُّل البصير يرد كل هذه الأزمات إلى أزمة الإنســان؛ لأنَّ الأزمات بشتى ألوانها، هي امتداد ونتيجة لأزمة الإنسان الذي كاد يفقد معنى وجوده، في ظلّ الحضارة المعاصرة التي أصبحت دون أفق مســتقبلي يمكّنها من طرح مشروع اجتماعي قادر على أن يعيد للإنسان إنسانيته، بل أنتجت إنسانًا جديدًا هجينًا عاث فسادًا بإنسانيَّته»[3]. وبهذا، فقدت الحضارة الغربية مرتكزها الأساس؛ لأنَّ عملية الانصهار في التوجُّه المادي والتقني حصر مفهوم التقدُّم بصبغة جافَّة أفرغت من قيمها الإنسانية، ما خلق بونًا شاسعًا ما بين التقدُّم التقني والتكنولوجي والاقتصادي، والتقدُّم القيمي. هذا التفاوت صار يهدِّد الوجود الإنســاني نفسه، لهذا تعلو القيمُ التي «تؤسِّس للحضارات على النظــم الاقتصادية والبرامج السياســية، وعلى كلّ ما يتصل بالتنظير المجــرّد للمبادئ والقواعد والنظريات»[4]. لا ترتبط القيم الحضارية بالنفع المادي والتقني، بقدر ما تسعى فعلاً لتثبيت القيم الإنسانية التي تؤسِّس المشترك الكوني.

ثالثًا: الاستئناف الحضاري:

إنَّ إثارة مســألة الاســتئناف الحضاري تضمر، بشــكل ما، نوعًا من الاتفاق أو إمكانية القول

1 - Marie –George Buffet: Du monde occidental au temps de l’humanité, P100

2 - Jean Sylvestre Montgrenier: L’occident : une civilisation et une réalité géopolitique à l’éprouve.

٣ - علي الأصبحي: أزمة الحضارة المعاصرة: هل هي ازمة قيم؟، ميثاق الرابطة.

٤ - أحمد بابانا العلوي: بناء الحضارات ومنظومة القيم المرجعية، ديوان العرب.

بوجود انكسار أو انحباس يخصّ الحضارة المهيمنة راهنًا، وإنَّ العملية تستوجب بالضرورة حضارة بديلة لتحقيق الاستئناف الحضاري كما هو مأمول إنسانيًّا، لكن الإشكال يتعلَّق بجوهر الاستئناف نفسه؛ إذ لا تتوفَّر قوالب حضارية جاهزة يمكن أن يجري استبدالها بالمهيمنة راهنًا، بقدر ما يتعلَّق الأمر باستئناف ينتج عن أزمة وانهيار حضارة وتفوُّق أخرى، وهنا يستوجب القول بضرورة رصد بوادر الأزمة وأعراض صعود حضارة بديلة، أو تجدُّد الحضارة المهيمنة وفق شروط مغايرة لما كانت عليه سابقًا؛ إذ يجب مواجهة هذا الانكسار ببديل يستأنف المأمول الحضاري. لكن هذا القول نفسه يواجه عدة إشكالات، منها: فهل يمكن قراءة التاريخ بشكل فوق تاريخي؛ أي رصد الانكسارات أو الانحباس الحضاري، ونحن في ثنايا هذا الانحباس؟ وهل سيسمح الغرب بتجاوزه؟

إنَّ التساؤل عن إمكانية الاستئناف يشكِّل في حد ذاته معضلة؛ لأنَّ الحضارة الغربية خلقت نوعًا من الانحباس الحضاري لدى باقي الثقافات، من خلال فرض منطق القيادة والتبعية، وكذا المراقبة الفوقية لمسار باقي الثقافات. ومن هنا، فإنَّ كونية الحضارة الغربية أوجدت باقي الثقافات أمام مصير مشترك وأزمة تمسّ الجميع. يرادف سقوطها في الوعي الجمعي سقوط أتباعها، وهو وعي زائف ومغلوط يخدم بالأساس السردية الغربية التي تهدف إلى إطالة أمد هيمنة الحضارة الغربية؛ حيث يحضر هاجس المراقبة والعقاب للآخر، إن لم يكن على وفاق مع المنهج والمسار الحضاري الغربي باستمرار، فهي على الدوام تخلق لنفسها أعداء أو عدوًّا لتعزّز منظارها الهُويّي، وتبقي على حضارتها حارسة كونية. جعل هذا الهاجسُ من فقدان الريادة الحضارية العالمَ الغربي يقسِّم العالم وفق نمط من الولاء الوجودي الذي يحابي المريد ويعاقب المرتدّ.

قد يشكّل هذا الانكسار مدخلاً لإضاءة بقية الثقافات، بما يتيح خلق إمكانات جديدة، وصياغة بديلٍ حضاري ينبع من داخل الهوية الثقافية الذاتية، دون أن يستلزم ذلك تهميش النموذج الحضاري الغربي أو إقصاءه؛ إذ إنَّ تجاوزه تاريخيًّا وواقعيًّا يظلّ غير ممكن. ومن ثَمّ، فإنَّ بعض القراءات التي تدعو إلى القطيعة معه تبدو قراءات فوقية، تتجاوز الشرط الزمني والسياق التاريخي الخاص بكل الثقافات وتجاربها. لذلك، فإنَّ بناء مستقبل حضاري بديل يقتضي استيعاب الحاضر الذي أدمج النموذج الغربي في بنيته وآفاقه، والعمل في الآن ذاته على

فتح أفقٍ مستقبلي يتجاوز هذا الحاضر، وينبثق منه في آنٍ واحد.

بالتالي، قد نكون أمام شبه إجماع على أنَّ الغرب يعيش على وقع أزمة تستوجب إيجاد بديل حضاري يستأنف المسار الحضاري، من خلال استحضار القِيم والمعايير الإنسانية الحقيقية التي تضمن التعايش والقَبول بالتعدُّدية الثقافية والدينية، ولا تكتفي بالمسار التقني والتكنولوجي الذي صار، بمعنى ما، يساند النهج السلطوي والليبرالي الرأسمالي، فـ «الهمجية الغربية ليست نتاجًا للعنف والدمار فقط، ولكنّها أيضًا نتيجة لنزع الصفة الإنسانية والاغتراب اللذين يميّزان الحداثة، بما في ذلك مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والتكنولوجيا، وتناول وجوه الهمجية العديدة من التعصّب الديني إلى الاستعمار، ثمَّ الشمولية»[1]. فخلال نهاية القرن العشرين تفاقمت أزمة الحضارة الغربية بشكل لافت، وهو ما تناوله آرون الذي أضاف عاملاً آخر يشكِّل هيكل الحضارة الغربية؛ حيث رسم صورة الحضارة الأوروبية بثلاث خصائص: العلم، والتاريخ، والحرية، ويقترح إطارًا جديدًا للعمل: الانحطاط/الحيوية[2].

ترتبط الأزمة الراهنة بإشكالية الهوية الحضارية، لكنّ أبعادها باتت كونية الطابع، في سياقٍ تسوده ثقافة الخوف من الآخر ومن أيديولوجيّاته. ومن هذا المنطلق، فإنّ دوكسا[3] الصراع الحضاري والديني تُسهم في تهيئة شروطٍ ملائمة، تتجلّى في صعود هذا الخطاب انتخابيًّا في عدد متزايد من الدول الغربية، بما يفضي إلى وصوله الديمقراطي إلى مواقع السلطة السياسية. وقد أشار (بيرتولت بريخت - Bertolt Brecht)، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، إلى هذه الدينامية حين اعتبر أنَّ «البطن لا تزال خصبة لإنتاج الوحشية القبيحة»[4]. فصعود اليمين والحركات المتطرِّفة والمعادية للآخر يتصاعد بشكل لافت، ما يبرز وجهًا آخر للحضارة الغربية

---

١ - عمار عبد الله: الهمجية في الحضارة الغربية... أزمة الإنسان الحداثي عند إدغار موران وطه عبد الرحمن، الجزيرة نت.

2 - Olivier de Lapparent: la crise de la civilisation selon Raymond Aron à travers l'exemple européen, P177-183.

٣ - تصوُّر شائع يعتبر أنَّ العالم محكوم بصراع دائم بين الحضارات، ويُقدَّم هذا التصوّر كأنَّه حقيقة بديهية لا تحتاج إلى نقاش أو تفكيك نقدي.

4 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P100

لا يتبنَّى بالضرورة القيم الديموقراطية حتى وإن كان يمارسها، وهي ما يمكن أن توصف بحركات ارتدادية دفاعية ناتجة عن خوف من فقـدان التميّز العرقي الغربي؛ لهذا فحضور الآلية الدفاعية يرتبط بالحفاظ على الهوية الغربية. ومن هنا، تفقد الحضارة أُولى معالمها الكونية، لترتبط بهوية معيَّنة تسـعى لصهر كلّ الهويات الأخرى وفق منظارها للعالم، إنَّ مسـار الحصر الهُويّي، الذي يسـيطر اليوم على العالم الغربي، يمثِّل جانبين: أوَّلاً، القـراءة المحصورة أو المقزَّمة عن التنوّع الثقـافي والديني لباقي الشـعوب، والثاني ناتج عن الأوَّل؛ تجـلّي المعارضة أو الرفض الغربي لتعدّد الثقافات[1].

لطالما تغذَّت بعض التيارات السياسية في العالم الغربي، بطريقة ضمنية، بأيديولوجية هرمية وتراتبية الأعراق التي أبانت منذ القرن التاسـع عشر عـن رؤيتها لتنوّع الأعراق. وقد تجلَّت هذه القوى السياسـية في الفعل، كما يشـهد الهولوكوست؛ حيث يحضر في شكله الإقصائي الإبادة الجسـدية التي ارتبطت بوصول هذه التيارات إلى السـلطة السياسـية[2]. طال الرفض أو عملية الانتقائيـة في التوجُّـه للمختلف الثقافي حتى النتـاج الثقافي أو الرصيد التاريخي السـابق عن الحضارة الغربية، «فقد قرَّر ذلك الإله من خلال العلم والعقل أنَّ أسئلة الماضي الكبرى لا يمكن الاستماع إليها، لأنَّه قد عفا عنها الزمن، ولا صلة لها بمنجزات الحضارة والعلم الحديثين والعقل الذي هو كوني بالطبع»[3].

ومن هنا، فإنَّ مسـألة الاستئناف الحضاري لا تسـائل الحضارة المهيمنة والبديل عنها فقط، بـل تثير أيضًا آليَّـات الدفاع الحضاري الغربي إزاء الشـعور بالأزمة وبإمـكان تجاوزها، ويمثِّل هـذا الأمر عقيدة جديدة تغذّي إمكان اسـتمرار الحضارة الغربية. ترتكز هـذه العقيدة الدفاعية الجديدة، بشكل ما، على ثلاث صور بلاغية تشكِّل التصوُّر، أو المنظار السائد، أو المحدّد للآخر المختلف، وهي الاندماج -الاستيعاب-الطائفية والتنافس على بناء الذاكرة. فالسياسة السائدة في أوروبا تستخدم الاندماج ضمن أو في ثنايا المَهمَّة الحضارية، التي تربط الاعتراف بالمهاجر أو

1 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P98.

2 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P100

٣ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة، ص٥٢.

الأجنبي بمنظار وقالب البلد المضيف[1]؛ حيث يجري الاستقطاب باسم الكوني، لكن الاندماج يجري وفق طموح المحلّي، «ما يعني وقوع الغرب وسط الحيرة وفقدان معنى الحياة. فالحضارة الغربية هي بذلك جسد قائم بلا روح. وليس هناك ما يمنع انتقال الحضارة من الغرب إلى الشرق، عندما تتوفّر الشروط اللازمة لذلك، وفق دورة الحضارة التي تحدث عنها ابن خلدون»[2].

إنَّ أمر تجاوز حضارة ما أمر مسلَّم به، لكن الحضارة الغربية جعلت الأمر مختلفًا، مضمونًا وشكلاً؛ فهي عملت على جعل حضارتها ترادف سقف المأمول الإنساني؛ لهذا فإنَّ هذا التطوّر مختزل في المبادئ المترابطة والمندمجة للارتقاء المادي، والمعرفة العلمية والتطوّر التقني والسياسي، والإثراء المادي، والنضج (بمعناه الكانطي والكونتي)، بل وحتى القدرة اللا نهائية للجنس البشري على بلوغ الكمال[3]. وأي محاولة معناها فقدان هذا الامتياز والخروج عن السقف المأمول للكلّ البشرية، وهو ما يسهم، بمعنى ما، في خلق وعي زائف يقزِّم طموح باقي الشعوب.

إنّ مصطلح «الاستئناف» لا يُحيل بالضرورة إلى معنى الانهيار أو السقوط، بقدر ما يدلّ على إمكانية استحداث بدائل تُنعش المسار التاريخي في أفقٍ إنساني مأمول. ومن هذا المنظار، لا يتعرَّض المأمول الإنساني وحده للاهتزاز، بل يمتدّ الأمر إلى البنية المفهومية للقالب الحضاري الغربي الذي فقد جزءًا من جوهره الدلالي. وهو ما يبرز الحاجة إلى إعادة النظر في تعريف مفاهيم، مثل التراجع، والسقوط، واختفاء الحضارات على أسس أكثر دقّة وفاعلية. كما ينبغي، في هذا السياق، التنبيه إلى أنَّه رغم تنامي الدراسات في ميدان التاريخ المقارن خلال السنوات الأخيرة، خاصَّة في السياق الأنجلوسكسوني، فإنَّ هذا الحقل لا يزال في طور إعادة التشكّل النظري والمنهجي. فإنَّ هذه البحوث تتجاهل إلى حدّ كبير المفاهيم الفلسفية وتقتصر على نهج عملي وكمّي[4]؛ لأنَّ المفاهيم تعكس طبيعة التجارب التاريخية للشعوب، فمثلاً عندما نتحدَّث

1 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P98.

٢ - عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الاشكاليات والامكانيات، إسلام ويب.

٣ - وائل حلاق: الدولة المستحيلة، ص٥٣.

4 - David Engels: Notre civilisation est-elle condamnée à disparaitre comme les précédents?, p2.

عــن أزمة، أو تراجع الغــرب، أو فقدان المعنى الحضاري الغربي، لا يجري اســتبعاد بأنَّ الحياة البشرية نفســها في أوروبا ستســتمرّ أيضًا بعد نهاية أو تراجع حضارتنا عن الصدارة أو النمذجة، وأنَّ هــذه الأخيرة، على الأقل إلى حدّ ما، ستســتمر في الوجود بطريقة أكــثر انتقائية في الذاكرة الجماعية[1]. ما دام أنَّ أشكال الانحدار المختلفة التي تخصّ أي حضارة ليست بالضرورة امتيازًا وحيدًا للتاريخ ما قبل الحديث، بل هي جزء من ديناميكية تاريخية خالدة تنبع من الحالة الإنسانية نفســها[2]. فيكون هنا الانهيار أو الأزمة أو عملية الاستئناف من جوهر التجارب الإنسانية ذاتها. يقول في هذا الصدد (دافيد إنجل - david Engels): «حاولت أن أُظهر مدى تشابه الأزمة الحالية في أوروبا مع أزمة الجمهورية الرومانية في القرن الأول، عندما تعرّضت لأزمة سياسية واقتصادية وســكانية وعرقية واجتماعية غير مسبوقة، وتمزَّقت بسبب أعمال شــغب مستمرَّة، تحوَّلت إلى حــروب أهلية حقيقية، قبل أن تتَّجه نحو دولة ســلطوية تحقِّق نوعًا من الاســتقرار للأزمة، لكن بالمقابل جرى تقنين الحرية السياسية. أنا مقتنع أنَّ هذه التطوّرات ستنتظرنا أيضًا خلال العقدين القادمين، ولا يسعني إلا دعوة قرَّائي للاستعداد لهذه الأحداث[3].

رابعًا: النموذج الحضاري الممكن:

إنَّ طرح الإمكان هنا يعكس جوهر الاستئناف الحضاري المبني على فلسفة متفائلة، تستعيد المعنى والقيمة الوجودية للإنسان، باعتباره غاية في ذاته؛ أي إمكان يخصّ «فلسفة متفائلة تؤكّد أن العــالم والحياة لها قيمة في ذاتيتها»[4]، هذه القيمة التي صرنا نفتقدها اليوم. وبهذا قد يتجلَّى الإمــكان الحضــاري بما هو بديل نموذجي يجمــع ما نقص في غيره، وهو إمكان يســائل اليوم المصير الحضاري الغربي، لكنّ الإشكال يتعلَّق بالبديل نفسه، فالحضارة الغربية استطاعت إلى أبعــد حدّ إقصاء وتقزيم جــلّ الحضارات لصالح الإعلاء من حضارتهــا، وتهميش ثقافة وهُوية

1 - David Engels: Notre civilisation est-elle condamnée à disparaitre comme les précédents?, p2.
2 - David Engels: Notre civilisation est-elle condamnée à disparaitre comme les précédents?, p2.
3 - David Engels: Notre civilisation est-elle condamnée à disparaitre comme les précédents?, p2.
٤ - زياد عبد الكريم النجم: فلسفة الحضارة مقاربات في المفهوم والماهية، موقع مقال.

الآخر، لهذا قد يكون الإمكان الحضاري المأمول يتعلَّق بالدرجة الأولى بالابتعاد - قدر الإمكان- عن الانصهار الحضاري الذي يرعاه الغرب. فالمآل المستقبلي للنموذج الغربي زائل، أو على الأقل سيهمَّش من طرف قوى أخرى، ولو بشكل تدريجي، القوى التي سيكون لها القدرة على المواجهة بمختلف الوسائل المتاحة لها، ليس بالضرورة مجاراة العالم الغربي في القوة التقنية والأسلحة. إنَّ الانفلات من الانصهار الحضاري، في حد ذاته، فعل مقاومة يستحق الإشادة لأجل فرز نموذج حضاري بديل أو على الأقل ندّ حضاري يحقِّق بعض التوازن، وأرضية لإغناء المشترك الكوني الإنساني.

هنا يمكن أن يقرأ هذا الأمر من خلال نقطتين، على الأقل، الأولى تشير إلى إمكان التخلّي أو إزاحة الحضارة الغربية القائمة، وفق منطق تقويمي يرجح السليم ويهمّش غير السليم، والثانية تزكيّ إمكان التخلّي بعملية تطعيمه بما يفقده، أو بما يجعله غير مقبول، لكن هذه القراءة قد تسقطنا، بمعنى ما، في القراءة الفوق تاريخية التي تفقد معايير الشرط التاريخي المحدّد لتراتبية العتبات التاريخية للحضارات الإنسانية.

في الحقيقة، يتبلور الجدل في أزمة الحضارة الغربية ليس على ما هي عليه بوصفها معمارًا معرفيًّا وفلسفيًّا، بل على طبيعة العلاقات التي يقيمها صاحب هذه الحضارة مع بقية العالم: الأمن، والحماية، والتوتّرات، والانقسامات، والسيطرة، والحروب... فإنَّ ترتيب الأولويات يتعلَّق أوَّلًا بالاستراتيجية وتوازن القوى[1]. إنَّ هذا التوجُّه يكسر جوهر وقيمة المشترك الحضاري بين الدول. لهذا، قد يكون مفيدًا هنا التذكير بجانب مركزي في أطروحة (هنتنغتون)، وهو الدور الخاص للغرب. فهو يرى أن الغرب (أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية) قد شكّل النظام الدَّولي الحالي وفق قيمه ومؤسساته خلال قرون. ومع ذلك، في عالم متعدّد الأقطاب للحضارات، فإنَّ قوى ثقافية أخرى (الصين، والعالم الإسلامي، والهند، وروسيا/المسيحيين الأرثوذكس، إلخ) لن تقبل بشكل سلبي شمولية القيم الغربية؛ إذ يحذّر (هنتنغتون) من أنَّ الاعتقاد الغربي في عالمية قيمه (الديمقراطية الليبرالية، وحقوق الإنسان، وعَلمانية الدولة، والفردية، إلخ) ساذج وحتى

1 - Marie George Buffet: du monde occidental au temps de l'humanité, p64.

خطير: فالإصرار على فرضها على المستوى العالمي سيثير ردود فعل من الاستياء والعداء من قبل الحضـارات الأخرى، التي ترى هذه الجهود إمبريالية ثقافية لكل الحضارات[1]. وهو ما يحدث اليوم، فعدد من الدول والشـعوب التي تعي أن وجودها ليـس بالضرورة رهين نموذج حضاري يكيل بمكيالين، ويسعى لفرض نمذجته بالسلاح لتحقيق أغراض الهيمنة والسيطرة، بل بقدرتها على الانسلاخ عن النموذج ولو من داخله لإثبات وجودها.

إنَّ معالم النموذج الحضاري البديل يجب أن تحتضن آمال الشعوب وتطلعاتها المستقبلية، وأن تتجاوز المطبَّات والمآل، قدر الإمكان، التي حدَّت من الحضارة الغربية؛ لهذا «فالأنموذج الحضـاري العالمي لا بدّ أن يقوم على منظار جمعي، وليس منظـارًا فرديَّ النزعة، إنَّه لا يصدر من سلطة عُليا، وإنَّما من الجميع على أساس ديموقراطية المشاركة، فالأمر يتعلَّق بما تصبو إليه المجتمعات البشرية في ضوء تقاسم المشترك بين تطلّعاتها إلى تطوير حياتها نحو الأفضل»[2].

إنَّ النمـوذج الحضـاري الممكن هو الذي يقوم على أساسـات التي تحفظ سـلامة التفاعل الإيجابي فوق أرضية إنسانية؛ أي نموذج لتواصل «ثقافي سلمي يرتبط بمعطيات الواقع، بمعنى أن يجري تقدير دور ثقافات الأمم والشعوب في الوصول إلى صيغة تساعد على تشكيل حضارة إنسانية»[3]. إنَّه أقرب إلى عالم جديد جيوسياسي-ثقافي في طور النشوء، ولم تعد التسمية القديمة قادرة على تعريفه الآن[4].

لهـذا، قد نكون اليوم بحاجة إلى ثورة عالمية حقيقية: شـكل جديد من النظام الاجتماعي، ونظام دَولي يقوم على العدالة، والمساواة، والسلام، والتمازج، والتقارب الثقافي كما وصفه بشكل جميل (إدوار غليسـان - Édouard Glissant) و(باتريك شاموازو - Patrick Chamoiseau): علينـا التفكير في التغيير السـياسي والاجتماعـي في آنٍ واحد، ونمط آخر مـن التنمية البشرية المسـتدامة، وثقافة تقرِّب الشـعوب في تجربتها وخيالها. هناك تطلّعات مشتركة هائلة، وهناك

1 - Giuseppe Gagliano: Le choc des civilisations : controverses, héritages et résonances dans la géographie contemporaine, P15.

٢ - عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الاشكاليات والامكانيات، إسلام ويب.

٣ - عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الاشكاليات والامكانيات، إسلام ويب.

4 - Doudou Diène: Crise identaire du monde occidental, P100

إنسـانية يجب أن تولد، ويجب أن نسقط الجدران»[1]. وإسـقاط الجدران يستوجب نزع الوهم الزائف بتفوّق الغرب وتخلّف باقي الشـعوب، وإسـقاط كلّ السرديات التصنيفية التي تسحب وتبطل فعل المقاومة الثقافية.

لأنَّ الوضـع لم يعد كما كان قبل مئـة عام، فالغرب يتعرَّض لفقدان مكانته، من حيث القوَّة الاقتصادية والسياسية، لصالح الصين؛ إذ يمكن القول إنَّه السبب في الكارثة البيئية الجارية، كما أنَّه يعاني من شـكوك داخلية تهدمه وتهدّد نموذجه الديمقراطـي والاجتماعي[2]. ومن هنا، قد يكون الهدم المرتقب هو هدم داخلي، يفتقد يفتقد إلى الأسس التي تؤهّله ليكون نموذجًا حضاريًّا لباقي الشعوب، كما أنَّ العامل الخارجي يأتي مساعدًا أو دافعًا للبحث عن بديل حضاري، هذا النمـوذج الذي يفترض فيه أن يمثّـل بداية قوّة اقتصادية وتجارية تضاهـي القوَّة المهيمنة. فهذا الجانـب مُهمّ؛ لأن التاريخ برهن عـلى أنَّ القوة الاقتصادية والمعرفيـة والتجارية هي من تؤهِّل الحضارة لفرض ثقافتها. إنَّ عملية تأخير ومحاربة صعود هذه القوى المفترضة في العالم هي ما سـيخلق مناخًا لبروز البديل الحضاري؛ إذ لو نظرنا إلى التاريخ القديم، نرى أنَّ الهدف الأساس للقـادة القدماء، من بابل إلى جنوب آسـيا وشرقها، كان منع احتـكار تجاري ومالي من تقليص السكان إلى عملاء، أو الخدمة مقابل الديون، أو العبودية. إذا اتبع العالم الأوراسي غير الأمريكي الآن هذا الهدف الأساس، فسوف يعيد مجرى التاريخ إلى مجراه قبل الغربي. لن يكون هذا نهاية التاريخ، لكنَّه سيسـمح بالعودة إلى المبادئ الأسـاس للعالم غير الغـربي في ما يخصّ التوازن الاقتصادي والعدالة والمساواة[3].

اليوم، أخذت الصين والهند وإيران واقتصادات أوراسية أخرى الخطوة الأولى بوصفها شرطًا رئيسًا لعالم متعدّد الأقطاب، عبر تعبيرها عن الرفض لانضمامها إلى العقوبات التجارية والمالية الأمريكية ضدّ روسيا. هذه الدول الصامدة أمام الإصرار الأمريكي تدرك أنَّه إذا نجحت الولايات المتحدة في تدمير اقتصاد روسـيا واسـتبدال حكومتها بوكلاء من نوع (بوريس يلتسين - Boris

1 - Marie George Buffet: du monde occidental au temps de l'humanité, p65.

2 - Michel Eltchaninoff: Le déclin de l'occident, mythe ou réalité?

3 - Michael Hudson, La fin de la civilisation occidentale, P8.

Yeltsin)، فستكون الدول الأخرى في أوراسيا هي التالية[1]. ومن المتوقّع أنَّ هذا الوعي في تعامل قوى العالم مع الهيمنة الأمريكية سيزداد حدّة مستقبلاً. يعني هذا الطرح إمكانية البديل أو البدائل الحضارية، ويمكن أيضًا القول إنَّ «التجربة الإسلامية -على غرار التجربة الهندية والصينية السابقتين أيضًا- يمكنها أن تعلِّمنا كثيرًا عن كيفية تجاوز الأمراض الحديثة، والوصول إلى عصر أفضل، عصر ما بعد حداثي حقيقي على ما أمل»[2].

لا يمكن أن نواجه هذا التشوّه الثقافي الغربي لجلّ المفاهيم الحداثية بتشوّه ثقافي معاكس، يرمي الكلّ في سلّة الهامش، ويسعى لاستبدال البنى التأسيسية لخلق ندّ حضاري بديل. ثمَّ إنَّ رسم حدود هذه الندِّية من ناحية المنطق التاريخي مستحيل الحدوث في عالم يعيش على وقع الانفتاح اللا محدود، وهو تثاقف يعبرّ عن التاريخ البشري حتى لو سعى الغرب لجعله حكرًا عليه؛ لأنَّنا هنا نخلط بين الجانب المعرفي للمفاهيم ورؤيتنا المعيارية التقويمية لهذه المفاهيم، لهذا يجب بالضرورة إثارة مسألة «التحليل المفهومي للكلمات/المفاهيم (المعيارية الكثيفة) المتداولة في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبأهمّية الانتباه إلى تشابك الأبعاد الوصفية والمعيارية في هذه العلوم»[3]. فالحضارة الغربية لا يجري تقزيمها من حيث البناء المعرفي والمفهومي المجرّد، بل من حيث الجانب التقويمي للممارسة الغربية لهذه المفاهيم خارج الانتماء الغربي.

خاتمة:

قد يبدو التساؤل عن نهاية أو إمكان تجاوز الحضارة الغربية من قَبيل المبالغة أو التبسيط الذي يعوزه قراءة، أو حتى قَبول الواقع الذي تفرضه الحضارة الغربية، ما دام أنَّ إثارة وجود أزمة أو بوادر انهيار الحضارة الغربية هو موضوع أُثير سابقًا في أواسط القرن العشرين، دون أن يعقبه

1 - Michael Hudson, La fin de la civilisation occidentale, P8.

٢ - سجالات الدولة المستحيلة، مرجع سابق، ص٦.

٣ - حسام الدين درويش: المفاهيم المعيارية الكثيفة وتجاوز مثنوية الواقعة والقيمة، ص٨٠.

إزاحــة أو تجاوز فعلي. إنَّ هذا التأخير ليس ناتجًا بالضرورة عن قــوَّة الحضارة الغربية، بقدر ما يكون ناتجًا عن عدّة أمور، منها: الوعي الزائف لدى بعض الثقافات بكونها متخلّفة، إلى جانب انحصار فعل المقاومة، بالتزامن مع دينامية التجدّد التي تنتجها الحضارة الغربية عبر توظيف القوَّة والسلاح. لكنّ هذا المسار يفضي إلى أزمة قيمية عميقة، تُعيد رسم مآلاتٍ غير حتمية تتراوح بين الانهيار والتجاوز، وفي المقابل تُضعف ادّعاء الريادة الحضارية لبقية الشــعوب. فما هو معلوم أنَّ الحضارات تنهار عندما تفقد الســيطرة على اقتصادها وســيادتها. اليوم، الحرب في أوكرانيا، والأزمــة في غزَّة، والتنافس بين الصين والولايات المتَّحدة هي ليســت إلا مظاهر محلِّية لصراع أوسع بكثير. ما يثبت أن النموذج العالمي بدأ يصل إلى حدوده[1].

إنَّ فعل المقاومة خارج النمذجة الحضارية الغربية لا يعني رسم عداء حضاري أو وجودي بقــدر ما يعني إمكان التجــاوز عبر فعل المقاومة والصمود، وطــرح إمكانات ونماذج حضارية أخرى مختلفة؛ فالسياســة الاشــتراكية في الصين هي في نواح كثيرة عودة إلى الأفكار الأســاس للصمــود التي كانت تميّز معظم الحضارات قبل اليونان وروما الكلاســيكية. لقد أنشــأت دولة قوية بما يكفي لمواجهة ظهور أوليغارشــية مالية تســيطر على الأرض والأصول المدرّة للدخل. أما الاقتصادات الغربية اليوم، فهي تكرّر بالضبط الديناميكية الأوليغارشية التي سبَّبت استقطابًا وتدميراً لاقتصادات اليونان وروما الكلاســيكية، بحيث تُعــدّ الولايات المتحدة النظير الحديث لروما[2].

ومن ثَمَّة، فإنَّ حصر مفهوم الحضارة الغربية بمفهوم، مثل الأزمة والانكسار والتجاوز لا يعني بالضرورة عملية إقصائية للحضارة الغربية؛ إذ رغم كل الشــحنات السلبية التي يمكن أن نقولبها وفقها، لكنّها حضارة استطاعت إلى حدّ ما أن تخلق وجهًا إنسانيًّا وتقدُّميًّا، لا يمكن التشكيك فيه، لكن هذا الوجه لم يســتطع أن يكون وفيًّا لمفاهيمه العُليا المجرَّدة التي شكَّلت جوهر حضارته، مثل الحُرِّية، والديموقراطية، والمســاواة، وهو ما اســتدعى حتمية تجاوزه، وفي عملية تجاوزه إغناء لتجارب ثقافية للبشرية.

1 - Brigitte Bouzonnie: Vers la fin inéluctable de la civilisation occidentale?

2 - Michael Hudson: La fin de la civilisation occidentale, P8.

لائحة المصادر والمراجع:

- زياد عبد الكريم: فلسفة الحضارة: مقاربات في المفهوم والماهية، موقع مقال.
- عبد الإله الخضري: النموذج الحضاري الغربي: النموذج الحضاري الغربي: بين فلسفة الهيمنة ورهانات التعددية، العمق المغربي، ١٧ مايو ٢٠٢٥، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٢.
- عطا محمد حسن زهرة: تكامل الحضارات بين الإشكاليات والإمكانيات، إسلام ويب، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٥/٣٠.
- غادة الحلايقة: ما هي الحضارة الغربية؟، موضوع، ٢٤ يونيو ٢٠١٩، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٢.
- فداء الدين السيد عيسى: الحضارة الغربية.. حضارة متوحشة بجدارة!، الجزيرة نت، ٣٠/٨/٢٠١٨، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٥/٢٥.
- محمد أسامة: الرؤية التربوية الحضارية لـ«السيد محمد نقيب العطاس»، إضاءات، ٣١/١٠/٢٠٠٨، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٠.
- مصطفى عطية جمعة: أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، شبكة الألوكة، ٥/٤/٢٠١٦، تاريخ الزيارة ٢٠٢٦/٥/٣٠.
- نزهة بوعزة: التجربة التاريخية الحداثية عند راينهايت كوزيليك، مؤمنون بلا حدود، ٢٠٢١.
- أنس الربيعي: الحضارة الغربية: أنطولوجيا السيطرة وفقدان الإنسانية، الجزيرة نت، ٢٠٢٥/٨/٦، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٥/٣٠.
- بدران بن لحسن: مفهوم الحضارة: دراسة تحليلية مقارنة عابرة للثقافات، مركز ابن خلدون، جامعة قطر، مجلَّة أنثروبولوجيا، ج٧، العدد٢، السنة ٢٠٢١.
- حسام الدين درويش: المفاهيم المعيارية الكثيفة وتجاوز مثنوية الواقعة والقيمة، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الحولية ٤٥، الرسالة ٦٦٣، العدد٣، ٢٠٢٥م.

- أحمـد بابانا العلوي: بنـاء الحضارات ومنظومـة القيم المرجعية، ديوان العرب، شـباط ٢٠١٣، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٢.
- دينا شحاتة: أزمة الديمقراطيات الغربية.. مقاربات نظرية للفهم، المركز المغربي للدراسات الاستراتيجية والعلاقات الدولية، ٦مايو ٢٠١٩، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٢.
- عثمان أمكور: سجالات الدولة المستحيلة (ردود وأفعال): حوار مع البروفسور وائل حلاق، مركز نهوض للدراسات والأبحاث، ٢٠٢٥.
- علي الأصبحي: أزمة الحضارة المعاصرة، هل هي أزمة قيم؟، ميثاق الرابطة، العدد ٢٣٨ بتاريخ ٢٧/١٠/٢٠١٦، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٠.
- عمار عبد الله: «الهمجية» في الحضارة الغربية.. أزمة الإنسان الحداثي عند إدغار موران وطه عبد الرحمن، الجزيرة نت، ١/٤/٢٠٢٣، تاريخ الزيارة: ٢٠٢٦/٠٤/١٠.
- كارل لويـث: ماكس فيـبر وكارل ماركس، ترجمـة: عبد الله حداد، مرادعة سـعود المولى، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، ٢٠٢٠.
- وائل حلاق: قصور الاستشراق -منهج في نقد العلم الحداثي-، ترجمة: عمرو عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط١، ٢٠١٩.

.

- Brigitte Bouzonnie: Vers la fin inéluctable de la civilisation occidentale?, 2mars2025.
- Françoise Dastur: vivons nous une crise de civilisation, village saint Pons, pentecôte 2011.
- Michael Hudson: La fin de la civilisation occidentale : pourquoi elle manque de résilience, et ce qui la remplacera, La tribune Diplomatique internationale, 22juillet 2022.
- Nicolas Truong: Comment sortir de la crise de la civilisation occidentale?, de la fatalité d'une économie fondée sur le crédit à l'affaire DSK, rencontre inédite

entre les deux philosophies parmi les plus lus et traduits en Europe, le monde, publié 27mai2011,

- Olivier de Lapparent: La crise de la civilisation selon Raymond Aron à travers l'exemple européen, Cairn.info.
- Paul Laval: L'idée de civilisation dans la pensée contemporaine. L'apport de la géographie et de l'histoire, Anatoli de l'Adriatique à la caspienne : Territoire, Politique, Sociétés, Journals Open édition, 42013/, p61 révolution nécessaire, Revue internationale et Stratégique, 20093/ n075.
- David Engels: Notre civilisation est-elle condamnée à disparaitre comme les précédents ?,communication devant l'Académie des sciences morales et politiques, lundi 23mai 2022.
- Doudou Diène: Crise identitaire du monde occidental, Revue internationale et stratégique, éditions IRIS éditions, 20093/ n075.
- Giuseppe Gagliano: Le choc des civilisations : controverses, héritages et résonances dans la géographie contemporaine, 15.03.2025, Choc des civilisations : une analyse approfondie
- Jean Sylvestre Montgrenier: L'occident : une civilisation et une réalité géopolitique à l'éprouve, Note d'actualité 90 Février 2024. 202402-ITM-NoteActu90.pdf
- Jonathan Fellous et Rodolphe Desbordes: Le «Choc des civilisations», un choc de simplicité ? - SKEMA Knowledge,12septembre2024,
- La fin de la civilisation occidentale : pourquoi elle manque de résilience, et ce qui la remplacera – La Tribune Diplomatique Internationale .
- Michel Eltchaninoff: Le déclin de l'Occident, mythe ou réalité ? | Philosophie

magazine, 01décembre2020.

- Michel Taubmann: Ce que l'Occident a apporté au monde, Revue internationale et stratégique, 20093/, n075, pp119à122.